الأدب العربي والصراع ضد الصهيونية والامبريالية العالمية

بقلم حمد صيقل

مهما كان الخلاف على وظيفة الادب ، فلا شك في انه قوة فعالة لها تأثيرها على الفرد والمجتمع ، ومن هنا لا مجال للجدل في وجوب اتجاه هذه القوة الفعالة الى التأثير على كل فرد وعلى كل مجتمع لصالح الوجود العربي والمصير العربي والشعب العربي الذي يعبر عنه هذا الادب .. وحتى لو لجأنا الى الاخذ بأي رأي من تلك الآراء التي تتحدث في وظيفة الادب أو غايته ، فسوف نرى انفسنا آخر الامر عائدين الى هذا المبدأ الذي لا شك فيه ، وهو وجوب اتجاه الادب بكل طاقته الى خدمة القضية العربية الاساسية وهي قضية مواجهة الصهيونية والامبريالية العالمية ، في مشاركة جادة لكل القوى المناضلة الشريفة ، التي تتصدى لهذا الخطر المحدق .. فاذا قلنا « ان وظيفة الادب التعبير عن مشاعر الانسان ازاء الحياة » فنحن واجدون ان مشاعر الانسان العربي مثقلة دائما بهذا التهديد الذي يواجهها في ضراوة من قبل الصهيونية والامبريالية ، والصدق الفني يقتضي ان يكون تعبير الادب العربي عن هذا التهديد هو التعبير الاساسي الذي يتقدم كل شيء سواه .. واذا قلنا « ان وظيفة الادب نقد الحياة » فنحن واجدون ان الحياة العربية مشحونة بآثام الصهيونية وجرائم الامبريالية ، حتى ما لم يظهر فيه اثر تلك الآثام والجرائم ، فانه راجع في حقيقة الامر الى ماجره علينا هذا الخطر المحدق الذي انتزع اجزاء عزيزة من الارض العربية ، وراح يستعد لانتزاع اجزاء اخرى ، واستطاع بمعاونة الامبريالية العالمية ان يزيح بعض الجولات وان يستنزف الكثير من طاقات الامة العربية التي كان من الممكن ان توجه الى التقدم والرخاء . وهكذا يتحتم على من يرى « الادب نقدا للحياة » ان يكون هذا الخطر الصهيوني الامبريالي مجاله الاول الذي ينتقد آثامه ويجسم جرائمه ، ويبصر بما تركته أياديه الملوثة على ارضنا وواقعنا وتاريخنا من جراح ! ولئن قلنا « ان وظيفة الادب تحقيق التوافق النفسي للانسان » فلا مراء في ان تحقيق هذا التوافق للنفس العربية لا يتم الا بمعالجة الداء الحقيقي الذي تسلل الى تلك النفس في صورة قلق حينا ، وفي شكل احساس بالهوان والهزيمة حينا آخر ، ثم في هيئة حزن قاتل مرة ، وفي قناع استخفاف ساذج مرة اخرى ، حتى كانت النتيجة هي بلبلة هذه النفس ، وتمزقها او عدم توافقها ان صح هذا التعبير .. ومن هنا كان على من يرى « الادب تحقيق التوافق للنفس » ان يعالج هذا الداء ، داء الصهيونية والامبريالية بحيث يحقق بهذا العلاج علاج النفس العربية التي ابتلاها العدو الخسيس بعدم التوافق ..

ونستطيع ان نمضي ما وسعنا المضي مع بقية الآراء المتشعبة في وظيفة الادب وغايته ، لنرى انفسنا آخر الامر عائدين الى الحقيقة التي لا مراء فيها ، وهي وجوب اتجاه الادب بكل قوته الى خوض معركة المصير ، الى جانب القوى الاخرى ـ ضد الصهيونية والامبريالية العالمية .

وسوف يقال ـ كما قيل دائما ـ « ان ذلك توجيه للادب ينافي طلاقته ، أو تقييد يعوق حريته ، او الزام يعارض طبيعته » .. غير ان هذا القول ومثله مما يلقي بحسن نية او بسوء قصد قد فرغ الجادون من تفنيده والرد عليه ، ولم يعد له محل في أي نقاش علمي أو ادبي جاد . فالحرية المفروضة للادب لا يعوقها القول بقيمة هذا الادب العظمى وقوته الفعالة ، ووجوب اتجاه هذه القيمة وتلك القوة الى اسعاد الانسان وتحقيق حريته وكرامته ورفاهيته .. على أن المسألة ليس فيها أي الزام او قهر او تسخير ، وانما فيها ترشيد فقط لما ينبغي ان يكون عليه الادب في تلك المرحلة ـ على الاقل ـ من التزام تلقائي يحس به كل اديب نحو وطنه وقومه ، بحيث يجند ادبه باختياره للوقوف به في صف المقاتلين ضد الصهيونية والامبريالية..

وسوف يقال ايضا ـ كما قيل كثيرا ـ « ان ذلك يضعف الادب ، ويجعل فيه كتابات اعلامية ممجوجة ، او في أقل تقدير يهبط به عن المستوى الفني العالمي » .. وهذا القول ـ هو الآخر ـ مردود بأن الحديث عن الادب الحق الذي استوفى كل القيم الادبية المطلوبة ، مع اتجاهه موضوعا ومضمونا الى هدف النضال ضد الصهيونية والامبريالية ، ان اي كلام هابط فنيا لا يدخل في حديثنا ، ولا يشفع له حتى نيته أو مجرد معالجته لموضوع نضالي ضد عدونا الضاري .. بل لا بد ان يكون العمل ادبا قبل كل شيء ، ثم يقال عنه بعد ذلك انه ضد العدو وملتزم بقضية العروبة ، او انه يضرب في واد آخر أو يهتم بقضية اخرى ..

وهكذا نرى ان الادب الحق ، والادب الحر ، والادب الصادق ، والادب المعبر ، والادب الناقد ، والادب المفسر ، والادب المعالج ، انما هو الادب الذي يجند نفسه باختياره ليقف في صف المناضلين ضد اعداء العروبة من صهيونية وامبريالية .. وان اي ادب يشغل نفسه بشؤون اخرى ـ ونحن في هذه المرحلة من تاريخنا ـ انما هو ادب اقل ما يوصف به انه ادب مختلف ، او منفصل عن الواقع ، او

غير ملب لمتطلبات العصر .. ان النار اذا شبت في قرية ، فالعمل المطلوب من كل شاهد للحادث ان يسهم في اطفاء الحريق . وليس من الحرية في شيء ان يعتزل ابناء القرية في ركن قصي والنار تأكل قريته .. ان ما تواجهه الامة العربية الآن ربما كان أفظع مما تواجهه تلك القرية التي تحيط بها النيران ويتهددها الدمار .. ولذا كان الحديث في وجوب اتجاه الادب الى مواقع النضال ضد هذا الخطر ، حديثا بديهيا لا يحتاج الى ان نقيم عليه أي دليل او ان نتلمس له المبررات ، الا اذا كانت البديهيات تحتاج منا الى هذا الجهد الضائع!

ولكن كيف يمكن ان نفيد من اتجاه الادب هذه الوجهة الصالحة ؟ هل مجرد خوضه معارك النضال ضد الصهيونية والامبريالية هو المطلوب مهما كانت طريقته في هذا المعترك النضالي ؟.. في الحقيقة لا بد من ترشيد يمكن معه للأدب العربي المناضل ان يؤدي دوره على أتم وجه وأحسنه ، حتى لا يخفق في معركته ، أو يسقط في الميدان صريع الحماس وحده ، دون الاخذ باسباب النصر .. لا بد للادب في صراعه ضد الصهيونية والامبريالية من اسس يعتمد عليها ، ومن عدد يأخذ بها ، ومن خطط يتحرك بمقتضاها ، او بتعبير عصري ملائم « لا بد من استراتيجية ادبية «صحيحة» » .. فما هي تلك الاسس ، او العدد ؟ او ما هو التخطيط السليم للادب العربي في تلك المرحلة ؟ وما الذي يحقق تلك الاستراتيجية الادبية الصحيحة ؟

لا شك في ان الاساس الاول هو المعرفة الصحيحة بالعدو بجانبيه ، الجانب الصهيوني والجانب الامبريالي ، فلا بد من ثقافة كافية للاديب العربي تبصره بالحجم الحقيقي للعدو ، وبكل مخططاته واهدافه ووسائله وأساليبه ، كل هذا حتى يتعامل الاديب العربي في صراعه ضد هذا العدو على بينة وبصيرة ، وحتى لا يتورط في اخطاء تهوي بتتاجه الى مهاوي الاخفاق ، فأي جهل بالصهيونية تاريخها وواقعها وخططها واهدافها ووسائلها ، وأي تغافل او غفلة عن الامبريالية وحقيقتها وأطماعها وحياتها ومؤسساتها ومراكزها وغاياتها ، يورط الاديب المتصدي لصراع الصهيونية والامبريالية في اخفاق مضحك ويجعل عمله ـ مهما كان مخلصا ـ نوعا من « الدون كيشوتية » ومحاربة طواحين الهواء !

والاساس الثاني هو الاقتدار الفني الادبي الصحيح . وذلك بان يكون كل ما ينتج من أدب نضالي ادبا حقيقيا ، مستوفيا أشراط الادب في كل نوع من انواعه بحيث يكون الشعر حقيقيا ، بل عاليا فنيا في مستواه الشعري ، وبحيث تكون القصة قصة حقيقية ، بل رفيعة المستوى في المجال القصصي ، وبحيث تكون المسرحية مسرحية فعلا ، بل عظيمة القيمة في الميدان المسرحي ، وهكذا .. وذلك لكي يتحقق الاثر المطلوب من العمل الادبي ويؤدي وظيفته النضالية عن طريق احترامه والتأثر به والاقتناع بما يريد هذا العمل ان يقول .. وبغير ذلك يفقد العمل احترامه ، وتضيع قيمته ، ولا يكون له تأثير ، او يكون له تأثير عكسي ، بما يجلب من سخط وسخرية وازدراء !

والاساس الثالث ، التشبث بمبدأ الرفض ، بان يرفض هذا الادب الوجود الصهيوني كله ولا يستجيب لاية مصالحة او معايشة معه تحت أي شعار ، كما يرفض السيطرة الامبريالية ، ولا يخضع لضغوطها ولا ينخدع بحيلها ، ولا يطمئن للتعامل معها في أي صورة لان هدفها الاول هو الاخضاع والقهر والاحتواء والابتلاع آخر الأمر ..

والاساس الرابع ، هو التشبث بروح الاصرار ، بأن يصر هذا الادب على النصر في هذا الصراع ضد الصهيونية والامبريالية ، ويهيىء الناس لهذا النصر ، ويحملهم على الاخذ باسبابه الحضارية والسياسية والفكرية ، ويبعد بهم عن التعلق بالاماني والاوهام والاعتماد على الغير ، كما ينأى بهم عن اليأس والتحلل والرغبة في الخروج من المأزق على حساب الكرامة والتاريخ والعرض والحاضر والمستقبل جميعا !

والاساس الخامس ، هو الاعتماد على المنطق الانساني ، الذي يقنع أي انسان في أي مكان . ومن هنا يجب ترك المبالغات المتورمة ، والعنتريات الصاخبة ، على ان يحل محل ذلك كله اتزان عقلي ، وروح انساني ، ومنطق عصري ، يشد عقل المتلقي ويهز قلبه ويكسبنا آخر الامر تأييده ، مهما يكن لون هذا المتلقي او جنسه ، او مكانه من خريطة العالم ..

والاساس السادس ، هو التجوح الى التفاؤل الواعي ، والى الامل المتزن بحيث يتجنب ادبنا المناضل اليأس والسلبية ، لما فيهما من منافاة لروح النضال ، وبحيث ينأى ادبنا كذلك عن التفاؤل الساذج ، الذي لا ينبني على اساس من وضوح الرؤية ولا يقوم على ركيزة من المعرفة الحقيقية بالابعاد المختلفة لكل شيء يمس المعركة .. ومن هنا كان على ادبنا في معركته ضد الصهيونية والامبريالية ان يتجنب كل ما يلقي ظلال اليأس على النفوس ، ومن باب اولى عليه ان يترفع عن تهم التخوين ، وشق الجيوب ، وتحقير الذات او لعن الماضي ، وتقيه من الحاضر والاستراحة في المستقبل !! وليس معنى ذلك الضحك في موطن البكاء أو المدح في مواقف القدح ، او تسمية الهزيمة باسم الانتصار ، ولكن معناه التعبير عن كل شيء بما يستحقه ولكن دون فقدان روح الامل الواعي الذي يبحث عن نور فجر الغد في أحلك ظلمات الامس واليوم !

وبعد هذه الاسس التي أراها ضرورية لادبنا العربي في صراعه ضد الصهيونية والامبريالية ، ارى أن الحديث لا يتم الا بما يكمل هذه الاستراتيجية الادبية المطلوبة والذي يكمل هذه الاستراتيجية الادبية هو أن نتوجه بهذا الادب الى الداخل والى الخارج معا ، بحيث لا يقصر هذا الادب العربي النضالي على المجال الداخلي وحده.. وهذا يفرض علينا أن نختار دائما من نتاجنا الادبي ما يمكن ان نترجمه الى اللغات الحية ، وان نوصله بطريقة او باخرى الى القارىء الاجنبي، وبخاصة في البلاد التي نحتاج أن نكسب فيها انصارا لقضيتنا .. ومن الممكن أن تقوم بهذه المهمة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، التابعة لجامعة الدول العربية » باعتبارها المنظمة الاقرب الى الميدان الادبي ، مع صفتها العربية الشاملة التي تضع على ابنائها مسؤولية عربية قومية مشتركة كذلك المسؤولية .. وفي هذه المناسبة ، ارى ان من الممكن تنويع الاساليب التي يصل بها الادب العربي المناضل الى المتلقي الاجنبي . فمن الممكن تسجيل اشعار على اسطوانات بعد ترجمتها ترجمة ممتازة ، وادائها باصوات مختارة .. ومن الممكن ترجمة مجموعات من القصص القصيرة ، ومختارات من الروايات ، وطبعها وتسويقها عن طريق بعض دور التوزيع المحايدة ، بعد اغرائها بالربح الوفير ، الذي لا مانع ـ في رأيي ـ من ان يكون مغريا بالاسهام الحقيقي والتحمس لنشر مثل هذه القصص والروايات، ثم من الممكن ان تترجم بعض المسرحيات وتهيأ لها فرص العرض في بعض المسارح الكبرى في اوروبا واميركا وغيرهما ، ولا يصح ان نبخل بأية نفقات تبذل في سبيل توصيل هذا الادب المسرحي النضالي العربي المسهم في قضية العرب ضد الصهيونية والامبريالية .. على انه اذا تعذر الاخذ بهذا كله فلا أقل من تنشيط مراكزنا الثقافية في الخارج ومكاتب الجامعة ، وسفارات البلاد العربية ، وما نشترك فيه من معارض ومؤتمرات وندوات وحلقات في مختلف بلاد العالم ، لا مانع من تنشيط كل هذه الاجهزة لكي نسهم بطريق واضح دقيق ودائم

في توصيل ادبنا العربي النضالي الى المتلقي الاجنبي ، وعن طريق هذا الادب نكسب كل يوم مزيدا من الاصدقاء ، ونحظى بمؤيدين عديدين ، لا شك انهم يمارسون باستمرار تزايداً في ضغط الرأي العام العالمي لما فيه صالحنا ونجاح صراعنا ضد اعدائنا الصهيونيين والامبرياليين . كل هذا طبعا بالاضافة الى توجه الادب اساسا الى الداخل ، حيث يبصر العربي بقضيته عن طريق الفن ، ويشحذ دائما عزيمته ويقوي ارادته ، ويجدد نسيج نفسه ، ويحول بينه وبين اليأس او التردد او التبرم او عدم الاستمرار في النضال والاقتراب من هاوية الاستسلام الذي فيه النهاية لا قدر الله !

بعد ذلك كله هناك كلمة تحتاج الى شيء من الايضاح ، وهي تتعلق بالتفسير الحقيقي لمصالح الامبريالية . فالمعروف ان معنى هذا المصطلح هو الاستعمار الجديد ، والمعروف ايضا انه ينصب اساسا على تلك الدول الاستعمارية الغربية التي عرفت تاريخيا بالاستعمار القديم ثم غيرت جلدها اخيرا ، وعملت على السيطرة بطريق آخر هو طريق الاحتكارات والاحلاف ومراكز القوى والقواعد ، وما الى ذلك .. وما دامت المسألة في الاستعمار الجديد ـ او الامبريالية ـ مسألة سيطرة وضغط ومحاولة كسب للدول الكبرى على حساب دولة او دول صغرى ، فانا ارى ان اصطلاح الامبريالية لا ينبغي ان يقصر على دول بعينها ، وارى ايضا ان كل دولة كبرى تميل الى الضغط والافادة من دولة صغرى هي دولة فيها امبريالية وان تسمت بأي اسم آخر .. فليكن مصطلح الامبريالية آذن معادلا للقهر والسيطرة والضغط وطلب مراكز نفوذ ، وليكن صراعنا ضد الامبريالية موجها لكل من يحاول ان يسيطر علينا او ان يضغط على واقعنا، او ان يستغل ظروفنا او ان يطلب مراكز نفوذ منا . اننا نعادي الصهيونية ومن يعاونونها في المقام الاول ، وصراعنا ضدهم هو صراعنا من اجل الحياة والكرامة .. ثم اننا مستعدون في الوقت نفسه لان نعادي وندخل في صراع ـ مهما كلفنا ـ ضد من يأخذ نفس الطريق الذي سلكه من عاونوا الصهيونية ومكنوها من طعننا وسلب ارضنا .. اننا على استعداد لان نعادي كل من يسيء الينا ويضغط علينا ويحاول اية سيطرة مستغلا ظروفنا، حتى ولو لم يقف علنا مع الصهيونية ، ولو لم يسلك اسما في عداد الامبريالية فصراعنا لا يهتم بالاسماء ، وانما يهتم بالافعال ، وصراعنا لا يأخذ بالشعارات ، وانما يأخذ بالتصرفات ، وهو يحسن تقدير الحسنات والسيئات !

بقيت كلمة ، او بقي سؤال : هل معنى كل ما تقدم ان يكون كل نتاجنا الادبي في كل نوع من انواعه ، وفي كل شكل من اشكاله، حديثا عن الصهيونية والامبريالية ـ بهذا المفهوم الموسع والواقعي للامبريالية ـ بحيث لا نجد قصيدة ولا قصة ولا رواية ولا مقالة ولا مسرحية الا في موضوع واحد هو الصهيونية والامبريالية ؟ الجواب بطبيعة الحال : لا !! فالمقصود من كل ما تقدم ان يكون هذا الواقع النضالي الذي تخوضه امتنا العربية منعكسا في أدبنا العربي ، نتيجة لتجميد الاديب لنفسه ، أو ـ على الاقل ـ لاستشعاره واقع امته ، بحيث نجد صورة لهذا الاستشعار ـ بطريقة او باخرى ـ في كل ما ينتج من أدب .. ومن هنا ليس بلازم ـ بل ربما ليس بمطلوب ـ ان يكون كل عمل ادبي نصا في موضوع واحد هو الصهيونية والامبريالية ، بل اللازم أن يلتحم الادب بالواقع العربي ، وان يهدمه، وان يفسره ، وان ينقده ، وان يعبر عنه ، وان يخلق التوافق النفسي فيه ، كل ذلك وقضية صراع العرب ضد الصهيونية والامبريالية هي القضية التي تلقي ظلالها هنا وهناك ، وتتسرب عناصرها هنا وهناك ، ونلمح ابعادها وآثارها هنا وهناك . وخلال ذلك كله يكون بث الاصرار واشاعة الرفض وتأكيد الصمود ، وشحذ الامل ، والاقتراب بالجماهير من فجر النصر ... وخلال ذلك كله ايضا يكون الفن الادبي العالي بكل اشكاله الشعرية والقصصية والمسرحية ، وبكل اسسه الفنية وروحه الانسانية ومعالجته الصحيحة ، ومن هنا يكون المنطلق الى العالم الخارجي حيث تكون الترجمة والنشر والتوصيل الصحيح الى المتلقي غير العربي ...

وهكذا لن ينغلق ادبنا بهذه الدعوة فيصير موضوعا واحد ، وانما سينداح وينسع ليتناول كل التجارب والمواقف والاحاسيس والانفعالات ، كما انه سيشكل في كل القوالب والاشكال والصور ، وسيكون كأدب أية أمة راقية تعرف معنى الادب واسلوب الفن . ولكنه فقط سوف يتلون بطابع المرحلة ولون الفترة وروح العصر ، حتى يرى فيه غيرنا حقيقة واقعنا ، وحتى يرى فيه ابناؤنا صورة حاضرنا وانعكاس احداثه علينا . وحتى نستطيع قبل ذلك وبعد ذلك ان نوظف هذا الادب بقيمته الفخمة وقوته الهائلة في أهم ما يشغل حياتنا الحاضرة ويمس تاريخنا ، ويهدد مستقبلنا الآتي ، وهو « صراعنا ضد الصهيونية والامبريالية » فان لم يكن هذا كان الادب لونا من اللهو الذي لا يليق في ساعات الجد ، او نوعا من الترف الذي لا يطلب عندما تلح الحاجة على الضرورات ... ومن حسن الحظ ان معظم ادبنا العربي يتجه تلقائيا الى تلك الوجهة الحيوية الصحيحة ، وهي وهي وجهة النضال ... وان كان في كثير من نتاجه يحتاج الى ترشيد ، حتى يتجه وجهته وقد تسلح بما يبلغه غايته ... وبعض تلك الاسلحة هو ما حاول هذا المقال ان يبصر به . وارجو ان يكون قد اصاب .

القاهرة — احمد هيكل

صدر حديثا

في زمن القهر والغضب

المجموعة الشعرية الجديدة

لحبيب صادق

منشورات دار العودة